

الانسجام الصوتي في بنية مفردة اللسان العربي

دراسة لأثر للحركات في الانسجام الصوتي

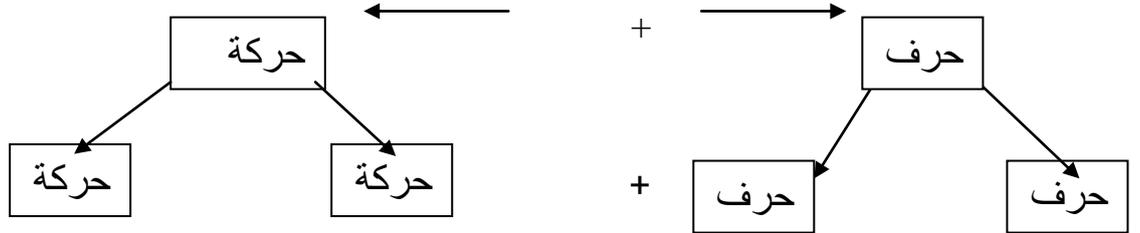
الأستاذ/ كمال بخوش-

جامعة البليدة.

تقديم:

اللغة أصوات (1). هذه الأصوات في تشكيلها للكلمات، تتراكم وفق منطقتين معينتين وخاص جداً (نظام). وعلى هذا فإن أي دراسة تفصيلية للغة ما تقتضي دراسة تحليلية لمادتها الصوتية أو لعناصرها التكوينية. لكشف عن خصوصية البناء الداخلي ومنطقه. وربما كان أكثر مستويات الدراسة اللغوية حاجة إلى التحليل الصوتي هي المفردة. فجل التغيرات التي تحدث في البنية المفردة من إبدال وإعلال وإمالة.... الخ.

قائمة على علل صوتية توجبها وتتحكم في توجيهها وضبطها في الوقت نفسه، بهدف تحقيق بنية صوتية منسجمة تكون أسهل أداء من البنية التي يقضيها الوضع اللغوي. لأن الأصوات اللغوية في التقائها بالتجاور في البنية المفردة لا تقبل في كل مرة جميع حالات التأليف و التجاور مع بعضها بحسب الشكل الذي يقتضيه الوضع اللغوي بل تهدف في أحيان كثيرة الي البحث عن تحصيل التماثل و التماثل فيما بينها و الي البحث عن استقرارها في التأليف بهدف خلق بنية صوتية منسجمة تكون أسهل أداء من البنية التي يقضيها الوضع اللغوي



سنعرض في هذه المداخلة إلى بحث أثر الحركات في الانسجام الصوتي.

1/ في بحث علاقة الحركات المباني (حروف العلة)

2/ في بحث علاقة الحركات بأنفسها

I. علاقة الحركات بحروف العلة

يرى ابن جني أن << الحركات أبعاض حروف المد واللين >> [02] . << فتمت أشبعت واحدة

منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه >> [03] ، وعليه فالألف تنتج عن إشباع ومد حركة الفتحة. والياء تنتج عن إشباع ومد حركة الكسرة ، والواو تنتج عن مد في الضمة .

>> فالفتحة من الألف ، والكسرة من الياء ، والضمة من الواو << [04] .

إشباع الفتحة	← الألف
إشباع الكسرة	← الياء الساكنة
إشباع الضمة	← الواو الساكنة

فانطلاقاً من هذه المعطيات فإن البناء الصوتي في البنية المفردة ، لن يكون منسجماً ما لم يحصل هناك توافق في الطبيعة الصوتية بين الحركة وحرف المد واللين الموالي لها. وغير هذا يجعل البناء الصوتي للكلمة ثقيلًا جدًا ، وربما تعذر أدائها إطلاقاً.

يقول ابن جني: >> لأنه إذا بدأت بالكسرة ، فإنك قد جئت ببعض الياء وأذنت بتمامها ، فإذا تراجعت عنها إلى الواو ، فقد نقضت أول قولك بأخذه ، وخالفت بين طرفيه. وكذلك إذا بدأت بالضمة ثم جئت بعدها بالياء، فقد جئت بأمر غير المتوقع << [05] . فيحصل هناك تعارض في البناء الصوتي للمفردة، لتعارض وحدات بنائها صوتياً. وهو ما قد يؤدي إلى الإخلال بفصاحتها لتتأخر بنيتها وعدم اتئلافها.

تعارض الوضع اللغوي ومطالب السياق

قد يتطلب الوضع اللغوي بناءً بين حركة وحرف مد ليس من جنسها. وهو ما يتطلب حدوث تغيير لهذه البنية المتنافرة . مما يستدعي قلب حرف المد واللين، إلى حرف مد آخر من جنس الحركة التي قبله، وهذا لإعادة الانسجام بين الوحدات الصوتية للبنية المفردة. وهو ما يسمى عند اللغويين " بالإعلال" [06].

>> فإن انكسر ما قبل الألف أو انضم، قلبت الألف للكسرة ياء، وللضمة واوا << [07] حيث يتعذر الخروج من الكسر إلى الألف ، أو من الضم إلى الألف للتعذر . وذلك نحو قولنا في جمع كلمة: << مفتاح >> جمع تكسير. فنقول : << مَفَا ح >> . وهذا لا يمكن تأديته، فنقلب الألف ياء لانكسار ما قبلها فنقول: مفاتيح. وكذلك: لأعب فتصغيرها يكون: لويعب . بدل لا يعب. أي قلب الألف واوا بعد الضمة .

و نفس الأمر مع الواو والياء الساكنتين نحو قولنا : قَوْل ، وطَوَّل . فنظراً لثقل الواو بعد الكسرة وعدم مجانستها لها ، تقلب ياء فنقول : قِيلَ وطِيل . وكانت العرب تقولهما مقلوبتين . وكذلك قالوا : موسر وموقن ، وأصلهم ميسر ، ميقن [08] ، فقلبت الياء واوا لسكونها وانضمام ما قبلها .

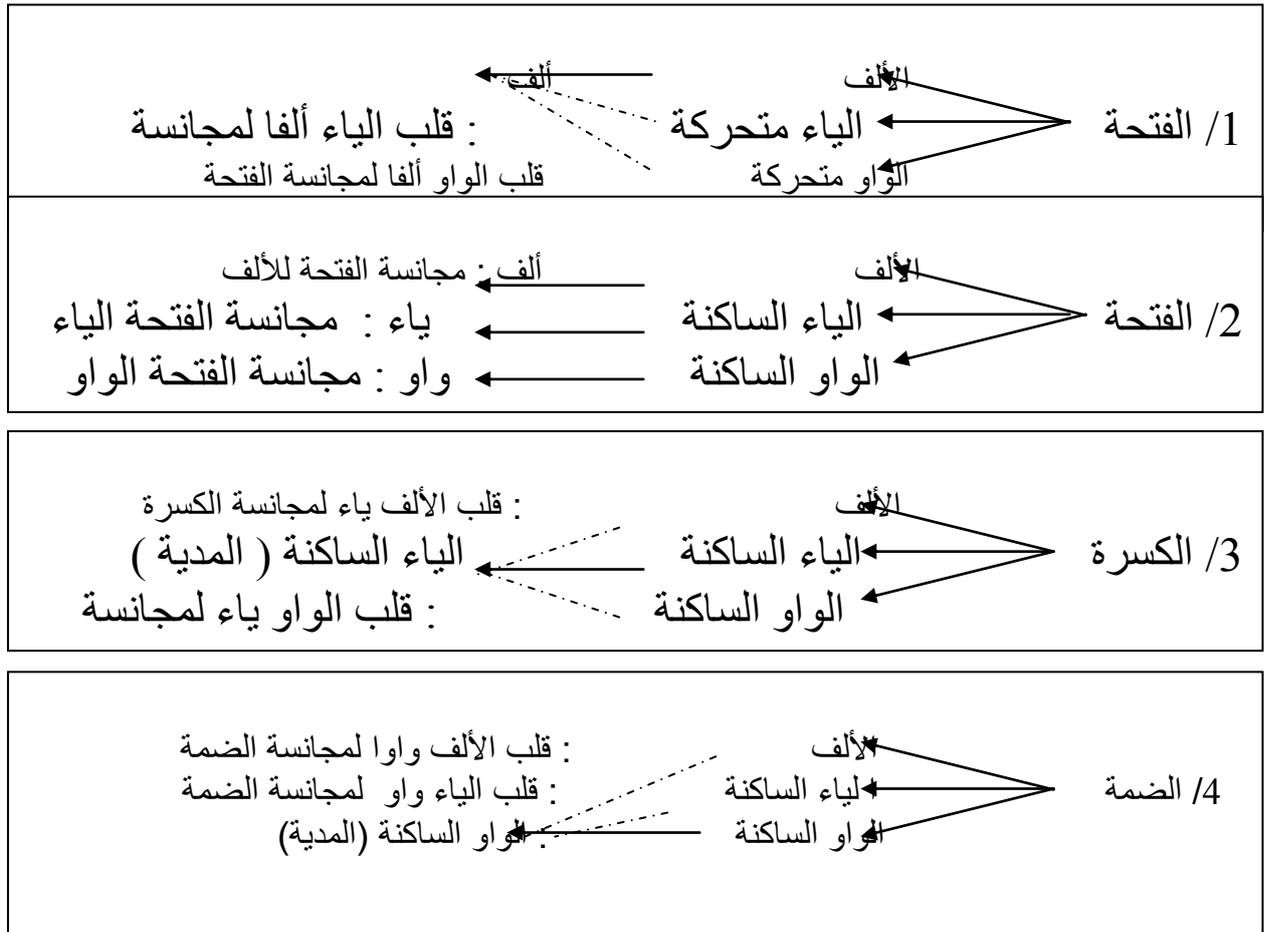
أما الفتحة فإنها لا تقلب الياء أو الواو الساكنتين بعدها ألفاً لخفتها ، ولبعد مخرجها من مخرجي الياء والواو، نتيجة بعد الألف منها ، وهي من الألف . مما يجعل تأثيرها في هذين الحرفين ضعيفاً إلى حد ما . فهذا البعد المخرجي يعتبر بمثابة فاصل بين الفتحة وبين الواو أو الياء الساكنتين بعدها .

يقول ابن جني : >> ألا ترى صحة الياء والواو الساكنين جميعاً بعد الفتحة << [09] . >> فلم تقو الفتحة في نحو: سوط ، وحوض ، وبيت ، وفيد ، على قلب الواو والياء ألفاً << [10]

أما إذا كانت الواو والياء بعدها متحركتين. فإنهما يقلبان ألفا لمجانسة الفتحة نحو : قام وباع فأصلهما : قوم وبيع [11] .

ونخلص في الأخير إلى أنّ التبدلات الصوتية التي تحدث بين الحركات وحروف العلة والتي تتمظهر في عدة أشكال من أهمها الإعلال. هدفها إحلال الانسجام والاتساق بين الأصوات المكونة للكلمة المفردة ، وهذا له دور كبير في عملية الاقتصاد اللغوي، الناتج عن ليونة وسهولة الأداء، وهو ما يؤهل اللغة ويجعلها أكثر انسيابية وحيوية.

ويمكن أن نلخص التغيرات الصوتية التي ذكرناها ، والشكل الذي تحدث عليه في المخطط الموالي:



1.4 . شكل يوضح آلية الإنسجام بين الحركات وحروف العلة

حدوث عملية قلب . : : :

عدم حدوث عملية الق

II. التقريب بين الحركات

تنزع الحركات فيما بينها إلى التقارب والتماثل. >> فكما أنك تجد التقارب بين الحروف تجده أيضا بين الحركات>> [12]. وهذا التقارب غالبا ما يتخذ شكلين:

فإما أن يكون عن طريق الانزلاق الحركي ، باقتراب الحركات بعضها من بعض بإنزياح مخارجها ، وإما أن يكون عن طريق إبدال "commutation" الحركات بعضها من بعض، بهدف التماثل الكلي ، أو التماثل الجزئي.

التقارب الحركي عن طريق الانزلاق

الحركات القصيرة ثلاث: الفتحة، والكسرة، والضمّة. هذه الحركات كلما تجاوزت في السياق يحدث بينها تجاذب . فكل حركة تحاول جذب أختها ناحيتها ، بهدف التقارب فيما بينهما . مما ينتج عنه أداء خاص للحركات الأصلية ، ناتج عن تأثر بعضها ببعض عند التجاور . هذا الأداء يختلف نسبيا عن أداء الحركة الأصلية وهي خارج هذا السياق.

فالحركات القصيرة (الأصلية) الثلاث ما هي >> إلا ظاهر الأمر >> [13]. ذلك أن دنو كل حركة أصلية واقترباها من حركة أصلية أخرى ، ينتج عنه حركة ثالثة ، هي عبارة عن تركيب (combinaison) صوتي، بين الحركة الأولى والحركة الثانية. وهو ما يسمى بحركة : (بين - بين) [14]. أو الحركات الفرعية.

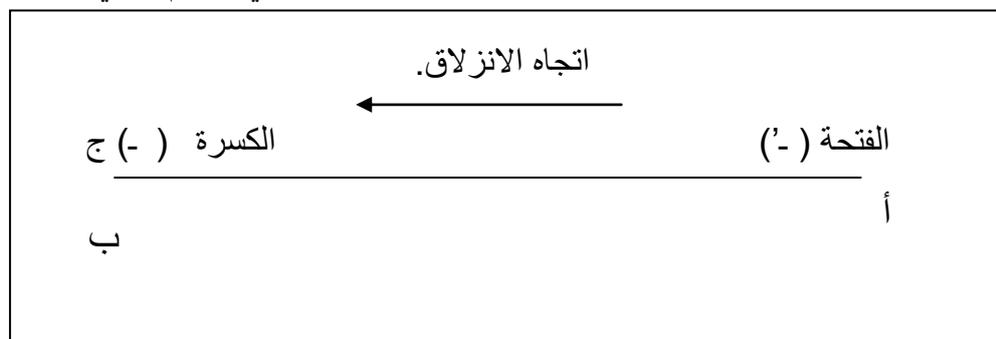
وما دام كل حركة (بين بين) ، هي نتاج تقارب حركتين أصليتين. فإن عدد الإمكانيات النظرية لإنتاج حركات فرعية، هو ست إمكانيات . لأن بين كل حركتين حركة. غير أن المحقق منها في مستوى الاستعمال هو أربع فقط.

فالحركة الأولى ناتجة عن اقتراب الفتحة من الكسرة . والحركة الثانية ناتجة عن اقتراب الفتحة من الضمة. و الحركة الثالثة ناتجة عن اقتراب الكسرة من الضمة. والحركة الرابعة والأخيرة ، ناتجة عن اقتراب الضمة من الكسرة. يقول ابن جني : >> ذلك أنه جاز في الفتحة أن ينحى بها نحو الكسرة والضمّة. وجاز في الكسرة أن ينحى بها نحو الضمة ، وجاز في الضمة أن ينحى بها نحو الكسرة. ولم يجز في واحدة من الكسرة ، ولا الضمة أن ينحى بها نحو الفتحة >> [15].

1.تقريب الفتحة من الكسرة

هذا ما عالجه اللغويون القدماء تحت مصطلح: الإمالة (inflexion) [16]. >> وهي تقريب الفتحة من الكسرة. نحو تقريب فتحة العين من " عالم" إلى كسرة اللام منه >> [17]. بهدف تقريب الأصوات بعضها من بعض ، حتى يكون العمل من وجه واحد [18].

فتحة العين من " عالم" ، ليست هنا فتحة خالصة . بل هي مزيج صوتي في أدائها بين أداء الفتحة الخالصة ، وأداء الكسرة الخالصة ، وهذا ما نوضحه في الرسم التالي:

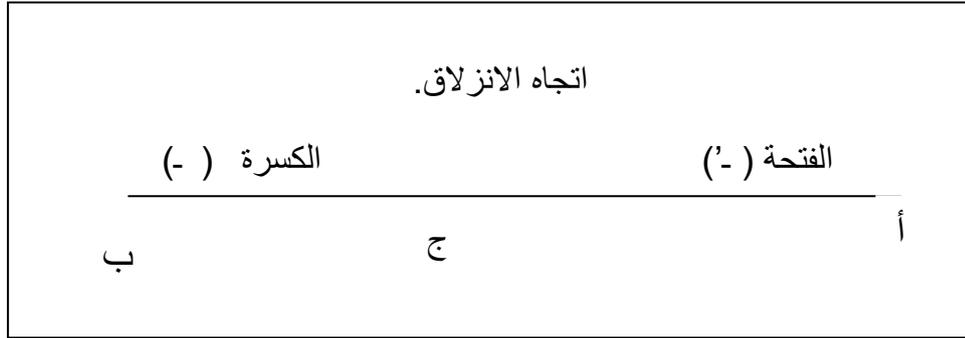


ففي النقطة (أ) من رأس القطعة المستقيمة [أ.ب] توجد الفتحة القصيرة الخالصة . وفي النقطة (ب) من القطعة المستقيمة [أ.ب] توجد الكسرة الخالصة، وكلما تحركنا بالفتحة من (أ) نحو (ب) فإن أداءها يبدأ بالتغير التدريجي ، مقتربا من أداء الكسرة. وهذا ما يعني أن <> الفتح أصل والإمالة فرع عليه<> [45] . لأنها ناتجة عن انزلاق للفتحة عن وضعها الأصلي.

أما على مستوى الجهاز الصوتي، فإن اللسان عند إمالة الفتحة ، يكون بين وضعي أداء الفتحة وأداء الكسرة . بارتفاع مقدمته نحو وسط الحنك الأعلى ارتفاعا يزيد على ارتفاعه مع الفتحة، ويقل عن ارتفاعه مع الكسرة . ويكون وضع الشفتين مع الإمالة في وضع انفراج، إلا أنه يكون دون الانفراج الذي يكون مع الكسرة [20].

2. تقريب الفتحة من الضمة

يقول ابن جني: <> والفتحة الممالاة نحو الضمة ، فالتى تكون قبل ألف التفتيح. وذلك نحو الصلاة والزكاة>> [20] . حيث أن فتحة اللام في " الصلاة" ليست فتحة خالصة ، كما أنها ليست ضمة خالصة. في الوقت نفسه. بل هي مزيج صوتي ، بين صوتي الفتحة والضمة.



فالفتحة في النقطة (ج) من الشكل، تختلف عن أداء الفتحة في النقطة (أ) من نفس الشكل. ذلك أنها في النقطة (أ) فتحة خالصة بينما في النقطة (ج)، تكون مشوبة بالضمة على حد تعبير ابن جني.

وفي مستوى الجهاز الصوتي، فإن اللسان في حالة تقريب الفتحة من الضمة، يتخذ وضعاً وسطاً بين وضعيه مع الفتحة ومع الضمة، فيكون بذلك بين قاع الفم (في وضعه مع الفتحة) وبين ارتفاع مؤخرته نحو سقف الحنك (في وضعه مع الضمة).

3. تقريب الكسرة من الضمة

وهذا ما أطلق عليه ابن جني: الكسرة المشوبة بالضمة فقال <> والكسرة المشوبة بالضمة نحو: قيل وبيع... فالحركة قبل الياء هنا ، ليست كسرة خالصة بل هي مشوبة بالضمة <> [21] . أي حركة بين الكسرة والضمة.

ونزوح صوت الكسرة واقترابه من الضمة، هو ما يسميه اللغويون القدماء بـ : " الإشمام" ، والإشمام يكون بإشمام حركة صفة حركة أخرى. كما يكون في الحروف بإشمام حرف صفة أو أكثر من صفات حرف آخر [22] . وفي الإشمام هنا تشير إلى حركة الضم دون تصويت، وإنما

تضم شفتيك فقط. أي أن الجهاز الصوتي حال النطق بالكسرة يتخذ وضعية النطق بالضممة ، دون أن يصدر صوت الضمة.

(4) تقريب الضمة من الكسرة

وهذه الحالة يمكن أن تسمى بـ : " تراجع الضمة نحو الكسرة ". لأنها الحالة الوحيدة في عملية تقريب الحركات عن طريق الانزلاق، التي يتراجع فيها الصوت إلى الورا ، عكس اتجاه خروج الهواء. بعكس الحالات الأخرى التي نكون فيها عملية التقارب ، من الأقصى إلى الأدنى مخرجا .

>> وتقريب الضمة من الكسرة ، يكون في مثل حركة عين" مذعور". فالحركة قبل هذه الواو ليست ضمة محضة ، ولا كسرة مرسله << [23] ، بل هي مزيج صوتي بين الضمة والكسرة.

ومن خلال ملاحظتنا لحالات تقارب الحركات وانزلاقها نحو بعضها البعض ، نلاحظ أنّ الانزلاق يكون من الأقصى إلى الأدنى مخرجا . أي موافقا لاتجاه خروج الهواء الصادر من الرئتين . ما عدا الحالة الرابعة (الأخيرة) التي يكون فيها تراجع الضمة نحو الكسرة .

وقد علل ابن جني هذا الشذوذ بقوله: <<أنّ الفتحة أول الحركات وأدخلها في الحلق ، وبعدها الكسرة ثم الضمة بعد الكسرة . فإذا بدأت الكلام بالفتحة وتصعدت تطلب صدر الفم والشفتين ، اجتازت في مرورها بمخرج الياء والواو، فجاز أن تشمها شيئا من الضمة، أو الكسرة لتطرقها إياهما. ولو تكلفت أن تشم الكسرة، أو الضمة، رائحة من الفتحة، لاحتجت إلى الرجوع إلى أول الحلق، فكان في ذلك انتقاض عادة الصوت ، بتراجعه إلى الورا >> [24]

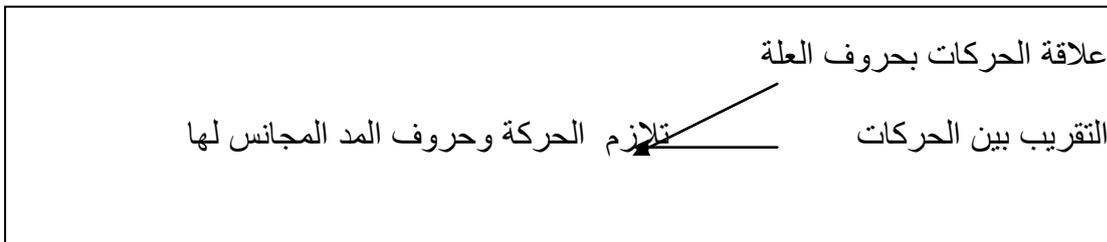
فالانتقال بالحركة عكس إتجاه خروج الصوت فيه ثقل صوتي . كما أنّ نقل الحركة إراديا في الإتجاه السالب لمجرى الصوت ، يصحبه تكلف في النطق ؛ وربما تعذر ذلك . وهو ما يناقض طبيعة الأداء في اللغة العربية ، التي تجنح دائما إلى السهولة واليسر في الأداء .

ويذهب العلامة ابن جني في نفس المقام، إلى تعليل سبب تراجع الضمة نحو الكسرة ، دون تراجع لا الضمة ولا الكسرة نحو الفتحة ، بأنه بين الضمة والكسرة من القرب والتناسب ، ما ليس بينها وبين الفتحة . فجاز أن يتكلف نحو ذلك بين الضمة والكسرة لما بينهما من التجانس [25] .

فالانزياح السريع لحركة نحو أخرى، والذي يكون في أداء صوتي واحد، متمثلا في حركة جديدة، تكون أكثر ليونة، وأكثر انسيابية من نطقنا لحركتين متتابعتين [(فتحة/كسرة) ،

(فتحة / ضمة) ، (كسرة / ضمة) (ضمة / كسرة)] إثر انتقال مفاجئ للسان ، من وضع الحركة الأولى، إلى وضع الحركة الثانية، عن طريق القفز . وهذا فيه مشقة وعسر كبير . ولتخفيف هذه المشقة في إخراج الكلام ينعطف التصويت عند تقريب الحركات بعضها من بعض عن طريق الانزلاق؛ <<فيصير ذلك كالسير في خط منحني محذب لطيف >> [26]

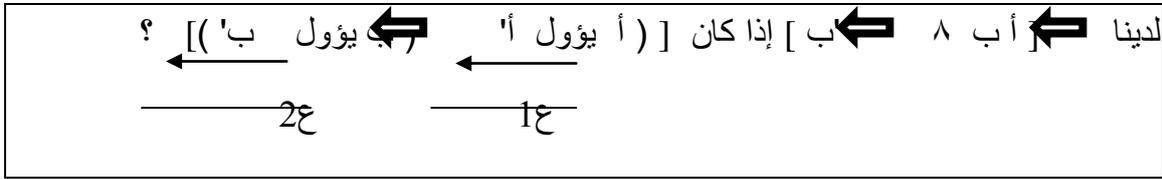
III) .تلازم التغيير بين الحركة وحرف المد المجانس لها



انطلاقاً من النتائج المتوصل إليها في بحث علاقة الحركات بحروف العلة. والتي من نتائجها ضرورة مجانسة حرف المد للحركة السابقة له. وذلك في أحوال معينة ، وربطها بالنتائج المتوصل إليها في بحث انزلاق الحركات واقترب بعضها من بعض. فإنه قد يطرح السؤال الآتي:

إذا كانت الحركة تستلزم أن يكون حرف المد الموالي لها من جنسها ، فهل يعني هذا أن اقتراب هذه الحركة نحو حركة ثانية ، يؤدي بالضرورة إلى اقتراب حرف المد المجانس لها، نحو حرف مد ثان مجانس للحركة الثانية ؟

وبصيغة رياضية يمكن طرح السؤال بالشكل التالي : لدينا العناصر الآتية { أ،أ'، ب، ب' } .

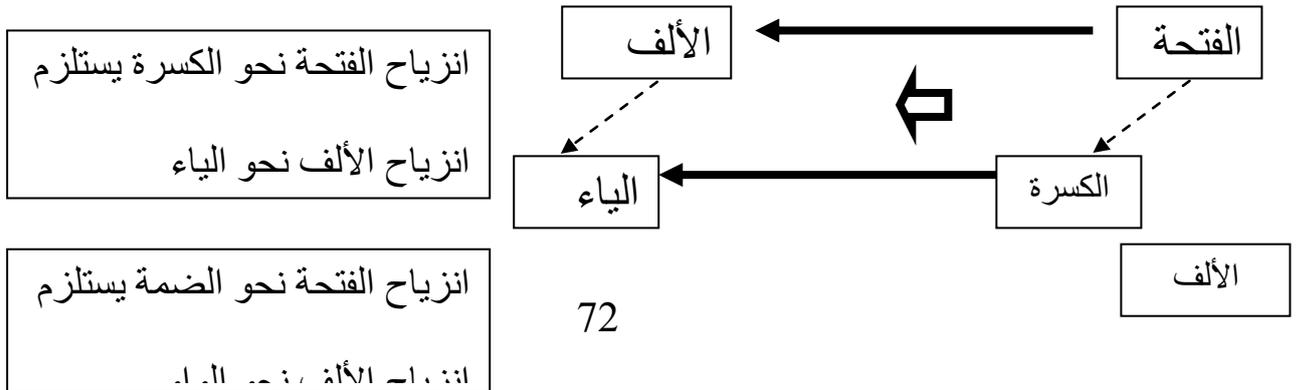


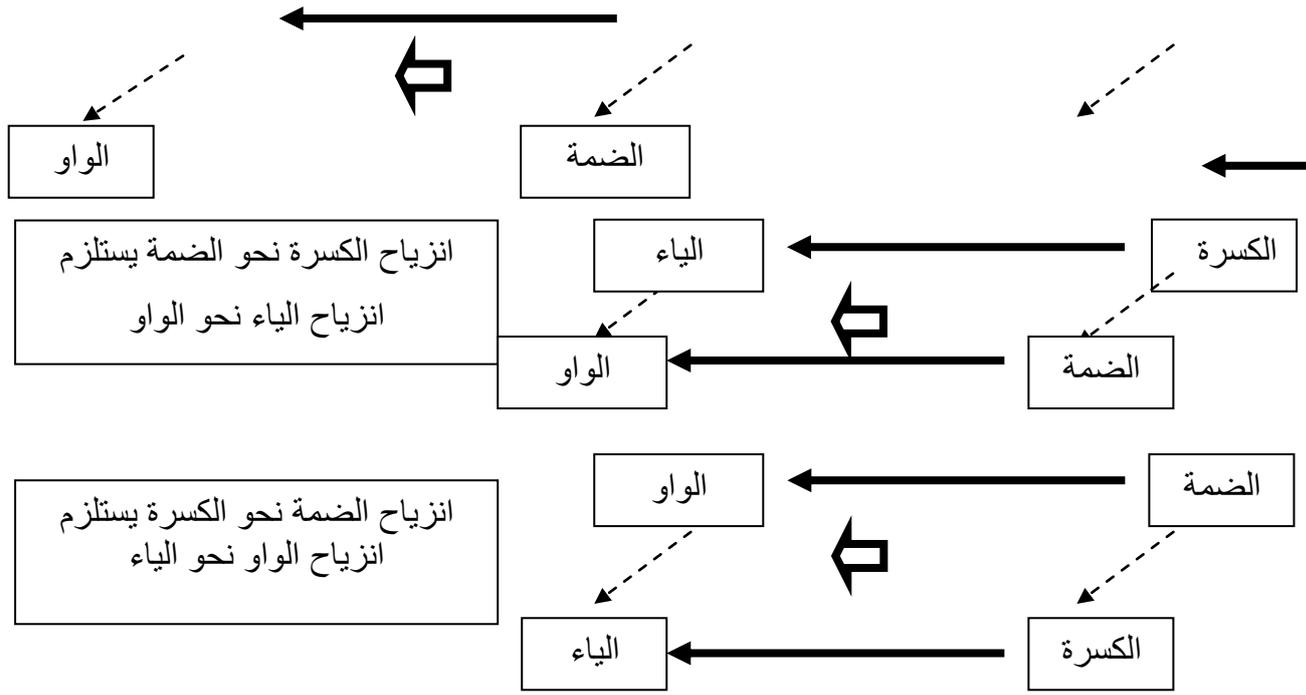
إنّ اعتبار العلاقة (1ع) محققة لما ذكرناه سابقاً في مسألة اقتراب الحركات بعضها من بعض عن طريق الانزلاق . يجعلنا نقر بصحة العلاقة (2ع) بالضرورة ، وفقاً لمنطق الاستعمال اللغوي . وإلا سيحدث هناك بؤرة توتر صوتية تؤدي إلى ثقل في الأداء فانزياح حركة نحو حركة ثانية، يؤدي بالضرورة إلى انزياح حرف المد المجانس لها في نفس الاتجاه ، وبالتوازي مع انزياح الحركة، للحفاظ على الانسجام الصوتي الحاصل سابقاً بين الحركة وحرف المد الموالي لها .

فالتغير الصوتي يكون هنا بصفة كلية لا بصفة جزئية . وهذا هو علة وجود الألف الممالة ، وألف التفخيم ، اللذين اعتبرهما سيبيويه ، من الحروف الفروع المستحسنة كما ذكرنا سابقاً .

ذلك أنّ الإمالة - كما ذكرنا - >> هي أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة ، فتميل الألف بعدها نحو الياء لضرب من تجانس الصوت] ، كما أنّ ألف التفخيم، ما هي في الأصل إلا إمالة الألف نحو الواو ، نتيجة إمالة الفتحة نحو الضمة .

وهذا ما ذهب إليه ابن جني بقوله : >> أن الفتحة الممالة نحو الضمة ، فالتى تكون قبل ألف التفخيم ، وذلك نحو الصلاة (...) وكما أنّ الحركة أيضاً هنا قبل الألف، ليست فتحة محضة. بل هي مشوبة بشيء من الضمة ، فكذلك الألف التي بعدها ليست ألفاً محضة لأنها تابعة للحركة التي هذه صفتها فجرى عليها حكمها . وأما الكسرة المشوبة بالضمة نحو : قيل (...) فالياء التي بعدها مشوبة بروائح الواو (...) وأما الضمة المشوبة بالكسرة نحو : مررت بمذعور (...) فالواو التي بعدها مشوبة بروائح الياء << [27] ، ولتوضيح هذا بشكل أحسن، نستعين بالرسم الآت





الخط المنقطع يعني انزياح الحركة، أو انزياح

وخلصة القول في هذا الإطار، هي أنه إذا كانت حركة تستلزم حرف لين موال لها من جنسها ، فإن انزياح هذه الحركة واقترابها من أخرى ، يؤدي إلى اقتراب حرف اللين الموالي لها من الحرف المجانس للحركة الثانية ، لضرورة الحفاظ على الانسجام الصوتي . وإلا فإنه سيحدث - بالضرورة - تعارض بين وحدات النسيج الصوتي .

ففي إمالة فتحة العين من (عالم) نحو كسرة اللام منه . فلو نزحت فتحة العين نحو كسرة اللام دون انزياح الألف بعدها نحو الياء ، لأصبح لدينا النسيج الصوتي الآتي : [حركة ~ الكسرة) + الألف] وهو تركيب صوتي، بين حركة تقترب كثيرا من الكسرة، والألف الساكنة بعدها . وهذا فيه تعارض وفقا لما ذكرناه اسبقا . و نفس الشيء مع بقية الحركات .

IV) النظام التعديلي:

من خلال ما سبق يتضح بان للحركات أثر كبير ومباشر في انسجام البنية المفردة صوتيا أو عدم انسجامها إذا يمكن حصر وظيفتها في الجانب النحوي بتحديد دلالة الكلمة أو وظيفتها أو جانب الصرفي بتتويج الصيغ ومن ثم الدلالة. بل تتجاوز هذا إلى مساهمتها في جعل البنية الصوتية للمفردة العربية بنية منسجمة متسقة ، إما بتفاعلها صوتيا فيما بينها. أو بتفاعلها فيما بينها وبين حروف المباني تأثرا وتأثيرا وفق نظام خاص ومضبوط

وعليه فإن الظواهر الصوتية السياقية إعلال ، إبدال ، إمالة... الخ والتي جاءت لتحل مشكل الأداء كلما حصل تعارض صوتي بين قواعد النظام اللغوي ومطالب السياق لا ينبغي النظر إليها كظواهر مستقلة عن بعضها بعض. بل كنظام تعديلي يمتلكه اللسان العربي بغية تسهيل الأداء من خلال ضبط بنية اللفظة المفردة صوتيا على نحو يتوافق وجهد الإنسان المبذول ومقدرته على ذلك . وهو الذي يجعل من الممارسة اللغوية ممارسة إقتصادية.

● فالسؤال المطروح هو: إلى مدى يمكن ضبط هذا النظام.

الهوامش

1- ابن جني. الخصائص . تحقيق محمد علي النجار دار الهدى للطباعة والنشر ط2 ج1 ص.38

2- ابن جني .سر صناعة الاعراب تحقيق محمد حسن الهنداوي ط1 1985 .ج1ص17

3- نفسه ج1ص.18

4- سيبويه. الكتاب. تحقيق عبد السلام هارون. ج4ص242

5- ابن جني سر صناعة الاعراب ج1ص19

6- الاعلال هو التغيرات التي تطرأ على احد احرف العلة الثلاثة (الالف .الياء .الواو) مضافا اليها الهزمة اما بالابدال او الحذف او الاسكان .

7- ابن جني سر الصناعة ج1ص.21

8- نفس المرجع و الصفحة .

9- ابن جني الحصائص.ج3ص.139

10- ابن جني سر الصناعة ج1ص51.

11- نفس المرجع و الصفحة.

12- نفس المرجع ج1ص.51

13- ابن جني الخصائص.ج3ص.120

14- حركة (بين-بين) مصطلح اطلقه المهلبى(ت 583) قال"واما الثلاث التي هي بين-بين فمنها حركة بين فتحة و كسرة و حركة بين فتحة و ضمة وحركة بين ضمة وكسرة"-

15- ابن جني سر الصناعة ج1ص.53

16- الامالة: معناها العدول عن الاستواء.وقد يطلق عليها مصطلحات عدة منها :البطح .الاضجاع.الكسر .راجع:عبد القادر مرغي خليل:المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر.ص157.وما بعدها.

- 17- ابن جني الخصائص ج2ص.141
- 18- سيويه .الكتاب ج4ص171.وكذا ابن يعيش.شرح المفصل.ج10ص.47
- 19-عبدہ الراجحي التطبيق الصرفي ص.186
- 20-ابنم جني سر الصناعة ج1ص.52
- 21-نفسه ص52.-53
- 22-جان كانتينو دروس في علم الاصوات العربية ص164.ترجمة صالح القرماذي .نشریات مركز البحوث والدراسات الاقتصادية 1966 تونس
- 23-ابن جني سر الصناعة ج1 ص.53.
- 24-نفسه ج1ص52.-53
- 25-نفسه ج1ص.54
- 26-فخر الدين قباوة الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد .ص.186
- 27-ابن جني .سر الصناعةج1ص52-53.